

# الأقليات المسيحية
# ودعوتها إلى علمنة الفكر العربي الحديث
# (الدواعي - الأهداف)

بقلم: فتحي القاسمي

* مدخل عام: حول دور المسيحيين في تنمية الثقافة الاسلامية

إنّ الدارس المنصف للعلاقات بين المسيحية والاسلام أو بين الأقليات المسيحية والفكر العربي منذ الجاهلية إلى الآن لا يمكنه إنكار المساهمة الفكرية والحضارية و الدينية للمسيحيين، ولا تغافل الإضافات التي قدموها للفكر الاسلامي خصوصا في مراحل التشكّل والظهور ثم انّ الفكر العربي المسيحي ليس منبتا وإنما هو عريق "سبق ظهور الاسلام ولم يزل حيّا حتى اليوم(1)" ومن الشعراء الجاهليين الفصحاء -وكانوا مسيحيين- نجد عدي بن زيد الذي كان شعره مفعما بالحكمة والتأمل وبُعد النظر فضلا عن تميز منظومه بقوة السّبك ودقة الحبك، وفي الخطابة ظهر قسّ بن ساعدة النصراني ومن الأطباء الجاهليين عرف طبيب العرب المسيحيّ: الحارث بن كلدة الثقفي وكذا الأمر مع سجع الكهان والقصص الذي اقترن بالقصّاص المسيحي الجاهلي تميم بن أوس، ومن القساوسة المسيحيين من بشّر بالدّعوة الإسلامية

والنبوة المحمدية مثل نوفل بن ورقة ثم إن العلماء المسيحيين كانْ لهم الفضل في إقحام "المؤثرات العقلية الهيلينية إلى منطقة الشرق الأدنى(2)" وقد استفاد منهم الكثير من المسلمين خصوصا عندما ظهرت طبقة من الأطباء والعلماء المسيحسيين مثل ابن أثال الذي كان طبيبا في البلاط الأموي وقد عدّه ابن أبي أصيبعة طبيبا متقدما، واكتسى نشاطهم المعرفي أهمية قصوى في العصر العباسي الاول فكان لهم دور معتبر في نقل المعارف وترجمتها واقترن ذلك بتأسيس بيت الحكمة وبتنشيط المأمون لَحركة الترجمة وهو الذي استعان بالعلماء المسيحيين الذين أمنوا مسيرة هذا التأسيس المعرفي "وكان أبو زكرياء يوحنا بن ماسويه مدير بيت الحكمة(...) ثم تبعه تلميذه أبو زيد حنين بن إسحاق وغيره كُثُرٌ ثم كان للمطارحات والمناظرات حتى فيما يتصل بالردود بين دعاة الصليب ومناوئيهم من أهل الملة الاسلامية، الذين أسهموا رغم غلبة النزعة الاقصائية في تنمية ثقافة الجدل(3) وحفظت لنا كتب التراث مناظرات فكرية وجدالية هامة كالتي جمعت بين أبي سعيد السيرافي ويونس بن متّى النصراني(4) وطال الأمرُ الفلسفةَ فكان الفارابي تلميذا لأبي بشر بن متى ولا شك أن تطوّر الفلسفة الاسلامية وتنامي سلطان المنطق والقياس قد عمّقهما الفلاسفة المسيحيون المناظرون للعلماء المسلمين وساعد على ذلك، الفتح الاسلامي للشام التي كانت منارة معرفية وقد انتبه كارل بروكلمان في رصدَه لتاريخ الشعوب الاسلامية إلى دور السّوريين في أنطاكية وحران وفضلهم في نقل تراثها إلى بغداد خصوصا في العصر العباسي وفي المجال الطّبّي، "ذلك أن أثر الكلية الطبّية التي أسسها السّاسانيون قبل ذلك في جنديسابور من أعمال السّوس كان أعظم من هذه الناحية فمن هناك جاءت أسرة بختيشوع الشهيرة بمن أنجبت من كبار الأطباء كجرجيس بن جبرائيل الذي عالج الخليفة المنصور في بغداد"(5).

إنه من اللافت النظر أن المسيحيين استعربوا بعد الفتح الاسلامي واندمجوا في المجتمعات الاسلامية الفتية في الشام والعراق ومصر "وانضمّوا إلى المسيحيين

العرب أصلا فحلت العربية محل اليونانية وأصبحت حلقة الاتصال بين جميع المسلمين في الشرق وربطت بين الروم والسريان والأقباط وغيرهم من الطوائف(6)"

ومما يزيد هذا التواصل أهمية وثراء -بعد عصور النحطاط- اقترانه ببؤرة توتّر كثرت فيها الصراعات وقد كانت الشام التي منها انطلقت المسيحية (ولد الميح عليه السلام ببيت لحم بفلسطين المحتلة) مسرحا لتحولات كبيرة وهي التي بها الأقليات المسيحية التي سيكون لها لاحقا دور ريادي في النهضة العربية.

وفي الجملة يمكن بيان هذه المساهمة المسيحية في الفكر العربي من خلال ثلاث لحظات:

1- لحظة ما قبل الاسلام وتجسمت في ظهور المدرسة العقلية بالاسكندرية وكان للسريان دور رياديّ في ذلك وتضاف إليها إرهاصات الجاهلية مثلما ألمعنا في بداية البحث.

2- لحظة التألق الاسلامي وتزامن ذلك مع تأسيس بيت الحكمة التي كانت أكاديمية إسلامية للعلوم والترجمة والنسخ وكانت مصدر تفتح الاسلام على الثقافات المتنوعة الأخرى وأسهم المسيحيون العرب ومنهم المستعربون أعظم إسهام في عملية "هضم" نتاج الحضارات الأخرى لا سيما في مجال الطب والعلوم والفلسفة.

3- لحظة النهضة العربية المبكرة وكأنّ اللحظتين السابقين مهدتا للثالثة فكان احتكاك الأقليات المسيحية بالمدنيّة الغربية مبكّرا ومكثّفا منذ ق 17م وبناء على كلّ ذلك لا يمكن التطرق إلى مدى تأثير هذه الأقليات في الفكر العربي الحديث دون تمثل روابط الروح والفكر بين الاسلام والمسيحية لأن الديانتين السماويتين (الاسلام والنصرانية) متقاربتان منسجمتان من خلال العديد من الجوامع المشتركة ثم انهما عريقتان في الشام.

I- المحور الأول: الأقليات المسيحية في الشام ومصر وعوامل اليقظة والعلمنة لدى طلائعها:

ليس من مشاغل هذا البحث تحليل مظاهر العلمنة في خطاب المسيحيين العرب الليبراليين(7) وإنما سنحاول التوقّف عند العوامل العديدة التي رشحت هذه الأقليات لمزيد التألق والتوق إلى المدنية والعلمنة في وقت بدأت فيه الأغلبية المسلمة تنفض عنها غبار عصور الانحطاط. والفرق بين وعي الطرفين بهاجس التمدن مثلا بيّن، إذ تميّز خطاب المسيحيين الشاميين بالانفتاح السريع على قضايا الحداثة والتطور ولذلك اعتبرهم د. جابر الانصاري في كتابه حول تحولات الفكر والسياسة في الشرق حاملين لـ "منبهات فكرية غير إسلامية(8)".

ويمكن بناء على ذلك رصد العوامل الدافعة إلى هذه المنبهات:

1) العامل التاريخي والثقافي:

إنّ الطلائع المثقفة المسيحية الأولى من الموارنة في الشام (جبل لبنان) كان لهم دور فعال وشبيه بدور أسلافهم الذين عرّفوا بالفلسفة اليونانية وأسهموا في ترجمة آثار الإغريق إلى العربية وكان تنبه المثقفين المسيحيين متزامنا مع تألق الحضارة الأوربية وقد تركوا لنا "تراثا عريقا في علم اللغة العربية يعود إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر9" وعرّف هؤلاء العرب بثقافة الشرق وأطلعوه على كنوز الشرق وأمهات كتبه كما أنهم سعوا إلى إطلاع الشرق على الفتوحات المعرفية العربية وقد كانت أيدي ملوك لبنان ممدودة إلى أوربا ودعمتها عناية البابا يوليوس الثالث ولويس الرابع عشر بأبناء المسيحيين الشاميين وفُتحت لهم المدارس في روما وظهرت طبقة من المثقفين السابقين (Précurseurs) بصّرت الغرب بكنوز المخطوطات الشرقية وكان عدد كبير منها موجودا في المكتبات الأوربية وبعثت المدارس العصرية التي كانت خاضعة إلى إدارة دينية ومن هؤلاء الباعثين الأوائل جبرائيل الصهيوني خرّيج مدرسة روما، وابراهيم الحاقلاني مترجم العديد من الكتب العربية وصاحب المعجم اللاتيني، والمطران جرمانوس فرحات الذي عمل على جمع المخطوطات العربية، ويوسف السمعاني الذي وضع فهرسا للكتب الشرقية المخطوطة في المكتبة الفاتيكانية، وتميّز هذا الرّعيل الأول بالسعي إلى كسر القطيعة بين الشرق

والغرب، وبجمع المخطوطات وبالترجمة وتمّ على يديه تكوين المدارس وجلب المطابع ومن أهم تلك المدارس:

*مدرسة عين ورقة: أمّ المدارس اللبنانية وكان التدريس فيها عصريا.

*المدرسة الوطنية وتخرج منها سليمان البستاني والشدياق.

*المدرسة البطريركية.

*مدرسة عزير التي أسسها اليسوعيون في منتصف القرن19.

ولقد تنافست البعثات التبشيرية في نشر المدارس في الشام تُعاضدها في ذلك الدول الاوربية التي كانت لها أحلام توسيعيّة خصوصا بعد مجزرة 1860 بلبنان نتيجة التعصب الطائفي. لقد كان المجال واسعا لممارسة النشاط التبشيري فبعثت مدرسة عينطورة ومدرسة القديس يوسف وغيرهما واستقطبت هذه المدارس اهتمام المسيحيين الذين فروا من المدارس الرسمية التركية الذابلة، وتخرج من هذه المدارس المستحدثة طلبة أصبحوا لاحقا طلائع الفكر العلماني الليبرالي في الشام وقد احتدّ التنافس بين البعثات التبشيرية الأمريكية البروتستانية واليسوعية الكاثوليكية فأدى ذلك إلى بعث جامعتين تخرج منهما المثقفون المسيحيون العلمانيون، فقد أسس المبشّرون الأمريكيون الجامعة الأمريكية سنة 1866ومنها تخرج يعقوب صروف وشبلي شميل وكذا فعل اليسوعيون الفرنسيون عندما أسسوا جامعة يسوعية سرعان ما نقلت إلى بيروت سنة 1874 وكانت منافسة للجامعة الأمريكية.

إن خريجي هذه الكليات وبقية المدارس كانوا يمتلكون ناصية اللغة العربية ويحذقون العديد من اللغات القديمة والأروبية (الفرنسية والإنقليزية خصوصا) وساعدهم هذا الرصيد الثقافي على تحمل عبء التعريف بالتطور الجبار الذي حققته المعارف.

إنّ أفراد هذه الأقليات المسيحية ينتمون أساسا إلى الموارنة المتمركزين بجبل لبنان أو الروم الأرتدكس الذين كانوا محتكين بالمسلمين وقد "اختلطوا مع

جيرانهم المسلمين بسهولة أكبر وبالتالي كانوا قادرين على تكييف أنفسهم مع العروبة في شكل لم تستطعه سائر الجماعات المسيحية(10)، أو الطائفة القبطية في مصر، لكنهم جميعا متحمسون للمدنية الغربية ومتحفزون لترسيخ المبادئ العلمية الحديثة يدفعهم إلى ذلك هذا التواصل المبكر مع الغرب بعد زيارة الأمير فخر الدين (أمير جبل لبنان) في بداية القرن 17 إلى أوروبا وحصوله على "علماء كفاة يعملون معه على ترقية أحوال بلاده"(11).

2)العامل السياسي:

لقد كابد أفراد الأقليات المسيحية الاضطهاد العثماني الذي اقترن باشعارهم بأنهم مقتلعو الجذور وكان هذا القهر السياسي من أحَدْ العوامل التي شجعتهم على الهجرة إلى مصر والولايات المتحدة الامريكية والبرازيل. وكان الأتراك يجنّدون أبناء المسيحيين على امتداد سنوات ويفرضون عليهم الضرائب والمكوس وقد عبر أمين الريحاني عن هذه المكاره في قوله "يدفعون الخراج ويأكلون الكرباج ويعاملون معاملة النعاج ثم يساقون إلى الجهاد"(12).

إنه من اللافت للنظر أن يعمد العديد من المثقفين المسيحيين العلمانيين في أواخر القرن 19 وبداية القرن20 إلى مجاراة الدولة العثمانية والمجاهرة بالولاء لها خوفا من القهر ورغبة في تطعيم أنظمة السلطنة بروح عصرية وساعدت الدول الأوربية المسيحية على تحقيق ذلك مما عاد بالنفع على الاقليات المسيحيية وإن بدا ذلك مرتبطابالمسيحيين المنتمين إلى الجمهوريات البلقانية وغيرها في أوربا الشرقية والتي كانت تحت مظلة الحكم العثماني، ومن مظاهر ذلك صدور بعض التنظيمات التي وردت فيها بنود تحترم الطوائف غير الاسلامية وتسنّ لها تشريعات تمنحها المزيد من الحقوق وحتى الامتيازات ويتجلى ذلك مثلا في خطّ كُلخانة (1839) وخطّ همايون (1856) ثم إنّ صدور دستور السلطنة بفضل مدحت باشا في ديسمبر 1876 كان تكريسا لهذا المسار المعلمن في ضبط أسس المواطنة إذ ورد في المذكرة المضافة إليه "إنّ المبادئ العامة المتعلقة بالحرية والمساواة والمعلنة في مقدمة الدستور

مستقاة من القانونّ العام الأوربي الأكثر ليبرالية وتشكل الأساس الحقيقي لحركتنا الاصلاحية الكبرى(13) ولعلّ هذا ما يفسر انخراط بعض المثقفين المسيحيين في تيار السلطنة مثل خليل غانم العضو الماروني في "مجلس المبعوثان" الذي بعثه السلطان عبد الحميد الثاني في سنة 1976 وبقدر ما كانت هذه العلاقة بين السلطنة العثمانية والأقليات المسيحية عدائية اتسمت في المقابل مع الاستعمار الانقليزي والفرنسي بالتجاوب والتحابب وقبل ذلك تفاعلت هذه الاقليات مع ابراهيم باشا بن محمد علي الكبير الذي انتصر لهم ضد السلطنة العثمانية وشيّد لهم المدارس الابتدائية والثانوية فنشطت فيها حركة التأليف والترجمة والنشر وسطع نجم بطرس البستاني وناصيف اليازجي وغيرهما.

لقد أدى الظلم السياسي المسلّط على المثقفين المسيحيين إلى مناداتهم بالقومية وتزامن ذلك مع معاداتهم لفكرة الجامعة الاسلامية التي اعتبرها بعض المثقفين المسيحيين الطلائعيين (Avangardistes) آلة سياسية وليست آلة دينية مثلما ذهبت إلى ذلك العديد من الصحف الأوربية(14). وكان إحساسهم بالقومية مبكّرا في الفكر العربي عموما وهم الذين أسسوا لها ونظّروا، من ذلك نداء ابراهيم اليازجي للعرب حتى ينهضوا من سُباتهم [البحر البسيط]:

تنبهُوا واستفيقُوا أيّها العربُ　　　فقدْ طمى الخطْبُ حتّى غاصت الرّكبُ

وتعتبر القومية التي جعلها المسيحيون رباطا يتجاوز الدين (رابطة الجامعة الاسلامية) اختيار ا سياسيا معلمنا في التعامل مع السلطة وهو ما يعوّض في نظرهم الجامعة الاسلامية والدعوة إلى قيام الدّولة الثيوقراطية.

3) العامل النفسي:

كانت الأقليات المسيحية تعاني مما أسماه هشام شرابي بـ"القلق الواعي(15)" فهم – نتيجة لوضعهم المحاصر ولنظرة الاخرين لهم ولطريقة تعامل السلطة المركزية معهم واستهدافهم لممارسات تفرضها الأغلبية المسلمة- موالون لاتجاهات مناقضة لما

يلاحظونه من تقوقع حول مفاهيم تقليدية قاصرة. ونما فيهم الولاء للعقل واقترن ذلك بظهور "بذور التمرّد على أشكال الفكر المطلق والغيبي ولم يكن المفكرون المسيحيون في هذا الإطار -خصوصا من تعلقت هممهم بالصحافة- "مجرد مراقبين سلبيين بل كانوا مفكرين متمردين لعبوا دورا هاما في تجذير الفكر المعاصر(16)" وقد تضخم لديهم الشعور باللاإنتماء وبالغربة فتولّد عن ذلك انفصام لحدّة إحساسهم بأنهم "غرباء في المجتمع الاسلامي في المعنى الحقيقي والعميق للكلمة، فأن يكون الانسان عربيا مارونيا أو أرتدكسيا أو بروتستانيا يصبح فورا في علاقة سلبية مع محيطه(17)"

ولعل هذا الشعور الحادّ يفسّر التشبث الكبير بالمقولات العلمية والمذاهب المتطرفة أحيانا ولذلك نجد شلبي شميل يؤله العلم عندما يقول: "فالدين الحق هو العلم الصحيح(18)" ويدعو أديب إسحاق إلى إحراق جثته بعد موته بل يذهب اليساري يوسف يزبك، لفرط تعلقه بالثورة البلشفية والأممية الثالثة التي تأسست سنة 1919، إلى "اتخاذها تقويما جديدا محلّ التارخين الميلادي والهجري(19)"

لقد أدّى بهم هذا الاحساس المتفجع بالانبتات إلى التعامل التلقائي مع الانقليز في مصر مثلا وهو ما جعل الكثير من المسلمين يحترزون في الأخذ بآراء المثقفين المسيحيين خصوصا أن هذه الطلائع المثقفة من أبناء الجاليات المسيحية سواء كانوا كتابا أو صحافيين لبنانيين أو سوريين تتمتع "بحرية واسعة للتعبير عن كلّ الموضوعات الاجتماعية والسياسية المحظورة في الامبراطورية العثمانية وأيّدوا هم الحكم البريطاني وهذا ما جعل علاقتهم بالوطنيين المصريين سيئة(20)"وثمة اتهام للمسيحيين العرب بانخراطهم في المخطط الاستعماري منذ القرن التاسع عشر واقترن ذكر الاستعماربمخطط تمسيح (Christianisation) الشرق والهيمنة عليه ثم إن القوى الاستعمارية أسست "أول جمعية تبشيرية عام 1847 والتي كان أعضاؤها من المسيحيين، والتي أخذت تدعو للفكرة القومية في إطار علماني"(21).

إنّ إحساس الأقليات المسيحية بالعزلة جعلها تبحث عن مسوّغات لتبني المدنية الحديثة والولاء للعلم لتحقق انتماء تكفلت بتجسيمه القوانين الوضعية والعلمنة "ولم

يكن بالنسبة إليهم تحقيق هذه الفكرة إلا عن طريق المساواة بين أفراد المجتمع في الحقوق والواجبات وهذا ما دعاهم إلى المناداة بعلمنة الدولة وفصل الدين عن الممارسة السياسية وعن التصنيف الاجتماعي(22)"

4) العامل الثقافي:

لقد أدى انتشار المدارس في لبنان خصوصا إلى ظهور طبقة من العلمانيين المسيحيين الذين كان لهم بالغ الأثر في سائر المثقفين العرب [المسيحيين] والمسلمين، وتميزت هذه المدارس فضلا عن تكاثرها بتنوعها واحتضانها لشتّى المعارف العصرية، وإذا كانت الجامعة الأمريكية ببيروت قائمة في مناهج تدريسها على النظرة العلمية المجدّدة فإن الكلية اليسوعية الناطقة بالفرنسية في بيروت أيضا كان توجهها في مواد التدريس نحو الانسانيات والاداب وقد كانت للكليتين مطبعتان هامتان متنافستان ونشيطتان، ثم إنّ تعلم اللغات كان شرطا أساسيا للالتحاق بالكلّيتين والمدارس التابعة لهما لأنهما تتولّيان، بعد تخرج الطلاب إرسال الكثير منهم لاستكمال دراستهم في أوربا فنشطت بناء على ذلك حركة الترجمة، ورشح هذا الوضع المعرفي الحافز تلك الطلائع المسيحية المثقفة للتشبع بتجليات التطور العلمي والانساني وفي تلك المدارس والكليات تشبّعوا بمبادئ الثورة الفرنسية وغيرها من الثورات العالمية وتعرفوا على روّاد الفكر العلمي عموما والفلسفي الفرنسي خصوصا من أمثال:

*منتسكيو (Montesquieu) الذي نادى بفصل السلطات ودعا إلى التسامح واهتم بسلطة القانون

*روسّو (Rousseau) الذي عارض رجال الدين المسيحيين وانتقد التعصب وكانت له روح شكوكية أثرت في العديد من العلمانيين المسيحيين.

وقد اعتبر سلامة موسى وهو مثقف طلائعي مسيحي (قبطي) في كتابه "هؤلاء علّموني" أن هناك قوي بذرية غيّرته وثقفته ووجد في "فولتير" أنموذج المحطّم

للخرافات وفي "إبسن" داعية الشخصية خير حافز لتوجيه إهتمامه بالشخصية الناجعة واعتبر "رينان" داعية البشرية "تولستوي" فيلسوف الشعب.

لقد غيرت المدارس الأوربية بأقطابها أنماط تفكير الطلائعيين المسيحيين فتعلقوا بها وسعوا إلى نشر ماتأثروا به على أعمدة الصحف خصوصا أنهم متمرّسون بالأدب العربي بل إن المسيحيين السوريّين مثلما بيّن ذلك الأب جون فونتان كان لهم دور رئيسي في الحفاظ على اللغة العربية وصفائها قبل ابنعاثها في العصر الحديث(23). ثم إنهم يحذقون أهم اللغات الأوربية (الفرنسية والانجليزية) وكان لهم رصيد معرفي معتبر، وقد شجعهم ذلك على تأسيس المطابع وبعث الجرائد والمجلات التي نُقل جلها إلى مصر، فبرزت مجلة "المقتطف" التي ظهرت في البدء في بيروت سنة 1876 وقد "شرع الأدباء: شاهين أيكاريوس ويعقوب صرّوف وفارس نمر من تلامذة الكلية الأمريكية ينشرون مجلة علمية صناعية زراعية دعوها: المقتطف"(24)، ونقل جورجي زيدان إلى مصر مجلته "الهلال" وأسس شبلي شميل القادم من لبنان مجلته "الشفاء" في مصر وبعث فرح أنطون اللبناني مجلته "الجامعة" وأنشأ سلامة موسى مجلته "المستقبل" ثم تلت ذلك عديد الصحف والمجلات ولم يعد الأمر مقتصرا على كتابة مقالات وإنما تسنى لهؤلاء المثقفين المسيحيين العلمانيين المجاهرة بإيديولوجية إصلاحية وكانوا يعرّفون بأحدث النظريات العلمية والتطورات المعرفية مثل الداروينية والتطورية والاشتراكية والماركسية.

لقد أحدثوا حركية فكرية متطورة في كلّ من مصر والولايات المتحدة الامريكية والبرازيل وجلب لهم نشاطهم المتزايد في مصر مثلا العديد من الأعداء والمنافسين والغرماء خصوصا أن الصحف الشاميةكانت سباقة إلى نقل الأخبار والأفكار وقد بلغ عددها "عشر صحف(25)" في سنة1875 وما انفك هذا العدد يتنامى في نهاية القرن19 وبداية القرن العشرين مما أثار حفيظة العديد من المثقفين المصريين ومنهم من كان مسيحيا مثل سلامة موسى الذي شن جملة صحافية ضارية على بعض رموز الصحافة الشامية.

ومن مظاهر هذا النشاط ظهور الرابطة القلمية بالولايات المتحدة الأمريكية (1920) والعصبة الأندلسية بالبرازيل وجماعة أبولو بمصر وقد دلّ ذلك كلّه على وجود تطوّر نوعيّ في مجالي الأدب والابداع وكان ذلك موازيا للتطور الهائل في مستوى الخطاب الحضاري الدّاعي إلى علمنة المجتمع وتجاوز المقدس والسائد وتضاف إلى ذلك كلّه المؤلفات الروائية والمسرحية المقتبسة من الأدب الفرنسي على وجه الخصوص (المدرسة الفلسفية والرّمنطيقية).

II المحور الثاني: الأهداف:

لقد راهنت الطلائع العلمانية المسيحية على التعليم واعتبرته عاملا جبارا لفرض قيم الحداثة واقترحت طرحا جذريا لتغيير الواقع العربي ودعت إلى التعجيل بفرض ذلك دون الأخذ بعين الاعتبار طبيعة التفكير في المجتمع العربي وقد ظنّ الكثير من العلمانيين أن الواقع العربي تستقيم شؤونه بمجرد تكريس المشروع الليبرالي المسيحي إلا أنّ الواقع العربي كان وما يزال مجزّءا به عناصر متباينة "يفكّر بعضها تفكيرا لاتينيا والبعض الآخر تفكيرا أنجلو-سكسونيا، ويحيا فريق حياة شرقية محافظة والفريق الآخر حياة غربية مقهورة ويسلك بعض جماعاتها سلوكا دينيا والجماعات الأخرى سلوكا علمانيا"(26) ولذلك اضطربت لدى هذه الشرائح "قيم التحضير والتحديث" لأنها متهافتة تعجلت العلمنة في قطاعات شتى ولم تراع الخصوصية الحضارية، وبالرغم من انحسار الطرح العلماني المسيحي الليبرالي وعدم تبلور مدرسة فكرية بديلة فإنه ساهم في علمنة الفكر العربي الحديث من خلال التعريف المستفيض والمتصل بالتطور والاشتراكيةو المسألة الاجتماعية والعدالة الاقتصادية والحرية ودولة القانون وحقوق الإنسان ورجاحة العلم والتجربة ويمكن الاشارة إلى دعوة بعض المثقفين المسيحيين التوفيقيين مثل نبيل عزوري إلى أن "تكون الأمة العربية كيانا واحدا مستقلا يجمع المسيحيين والمسلمين"(27).

إنه يمكن رصد بعض المظاهر الدّالة على توفقّ التيار العلماني المسيحي في علمنة مظاهر من الواقع العربي الحديث منها:

1- نجاحه في نشر الطرح القومي الذي أصبح رباطا تمارسه بعض الدّول العربية وقد أسس بعض الأحزاب القومية البعثية مسيحيون في سوريا (1932) وفي العراق (1940)

2- انتشار التيارات الماركسية والاشتراكية وظهور روادها في العالم العربي وفي شكل أحزاب وقد خاضت صراعا مريرا مع التيارات الدينية والقوى الاستعمارية ثم مع بعض الأنظمة العربية القائمة إثر الاستقلال.

3- ظهور ورثة العلمانيين المسيحين ممن حذوا حذوهم وساروا على خطاهم ومن هؤلاء:

*إسماعيل مظهر الذي أسس مجلة العصور سنة 1927 وسار على منوال يعقوب صروف.

*ساطع الحصري الذي واصل بمعية قسطنطين زريق دعوتهما إلى علمنة القومية العربية دون تردد أو تراجع

*تأثير سلامة موسى مثلا في:

- لويس عوض

-نجيب محفوظ، وقد نشر له سلامة موسى في "الجلة الجديدة" عند ما كان نجيب محفوظ حديث عهد بالكتابة، يقول نجيب محفوظ معترفا بدور سلامة في إبرازه ورعايته "عشر سنوات كاملة بين1929 و1939 كان سلامة موسى هو الراعي والمربّي والناقد الأدبي لي، نشر لي وأنا في الثانوي ثم في الجامعة عشرات المقالات وكتابا مترجما وأولى رواياتي"(28).

-تأثير سلامة أيضا في يحيى حقي وحسين مؤنس وغيرهما.

لقد ظهرت في فترة ما بين الحربين ارهاصات علمانية في المجالين الفكري والسياسي ولعل ذلك كان امتدادا للمدرسة العلمانية االمسيحية وقد جاهر بذلك بعض المثقفين المسلمين الذين واكبوا عن كثب وقُرب التحول النوعي في الغرب، فكان

ظهور كتاب الاسلام وأصول الحكم لعليّ عبد الرزاق سنة 1925 حدثا فكريا أسال كثيرا من الحبر ثم تلاه كتاب: في الشعر الجاهلي لطه حسين سنة 1926 وكلاهما أثار الفكر التقليدي واستفزه فكان ذلك عاملا من عوامل إخصاب الجدل.

إنه من الحكمة الاقرار بأن الفكر العربي الحديث قد استفاد كثيرا من أطروحات التيار العلماني المسيحي في مجال السياسة والمنهج والتصور الاستشرافي لمستقبل الواقع العربي وكان لذلك أثر عميق في تكييف الخطاب الفكري العربي المعاصر وشدّه إلى مزيد من العقلنة والحداثة والوعي الخلاق بالقضايا الآنية الحارقة مع حرص على إقصاء الحركات الدينية والعمل على تدميرها ووسمها بالرجعية والتحجر والارهاب يلتقي في ذلك غلاة العلمنة والسياسة، كما أن الواقع المعيش للمجتمعات العربية الاسلامية قد عُلمنت قطاعات عديدة منه حيوية(29) وهو ما بشّر به العلمانيون ويتجلّى هذا التغلغل مثلا في المسألة الاجتماعية (المرأة) وفي القطاع السياسي (السلطة اللائكية) وفي الاقتصاد الذي تتحكم فيه مقاييس عصرية، وكذلك في الأطروحات والهياكل الثقافية المعلمنة في العديد من الاقطار العربية مثل تونس والمغرب ولبنان.

والحاصل أن النهضة العربية العلمية قبل الجاهلية (الثقافة النبطية والسريانية) وفي العصر العباسي الثاني خصوصا وفي القرن التاسع عشر ساهم في نحتها المثقفون المسيحيون العرب وقد امتزج جهدهم بثمرات تفكير أضرابهم من المثقفين والمفكرين المسلمين من أجل تطوير المعرفة حتى تكون ناهضة بالفكر والمجتمع إلا أنّ غياب التسامح وطغيان النزعة الاقصائية لدى العديد من المثقفين المتعجلين والمتهافتين كانا وما يزالان من أهم العوائق المثبطة للفكر العربي الحديث والمستنير.

## الهوامــش:

(1) انظر مقال الاب: سمير خليل اليسوعي: التراث العربي المسيحي القديم وتفاعله مع الفكر العربي الاسلامي في مجلة *Islamochristiana* n°8 /1982 p.4.

(2) محمد جابر الانصاري: تحوّلات الفكر والسياسة في الشرق العربي (1930-1970) الكويت: سلسلة عالم المعرفة - نوفمبر 1980 ص:12.

(3) حول الصراع العقائدي بين دعاة الصليب والهلال انظر أطروحة الدكتور عبد المجيد الشرفي "الفكر الاسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع هـ /10م، تونس، الجزائر: الدار التونسية للنشر المؤسسة الوطنية للكتاب 1986.

(4) انظر نص المناظرة في كتاب أبي حيان التوحيدي: الامتاع والمؤانسة. (الليلة الثامنة)، بيروت منشورات دار مكتبة الحياة (د. ت) ج1 صفحة: 108-123.

(5) كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية (نقله إلى العربية: نبيه أمين وفارس ومنير البعلبكيّ)، بيروت: دار العلم للملايين ط9 وتموز 1981 ص:202

(6) *Islamochristiana* N°8 / 1982 p.26

(7) انظر أطروحتنا المرقونة: العلمانية في مؤلفات شبلي شميل وفرح أنطوان وسلامة موسى (نوقشت بكلية الاداب بمنوبة بتاريخ 29 /4 /1991) ج1و2. (542صفحة).( طبع القسم النظري منها في سلسلة موافقات في فيفري1994 تحت عنوان: العلمانية وانتشارها غربا وشرقا).

(8) د. محمد جابر الأنصاري تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ص: 13

(9) هشام شرابي: المثقفون العرب والغرب. عصر النهضة: 1875-1914)، بيروت: دار النهار للنشر، ط2، 1978 ص: 65.

(10) هشام شرابي: المثقفون العرب والغرب ص: 119.

(11) حنا الفاخوري: تاريخ الادب العربي. بيروت، المكتبة البوليسية ط6 (د.ت) ص:887.

(12) د. عمر دقاق: عنادل مهاجرة، بيروت: منشورات اتحاد الكتاب العربي، 1972 ص:15.

(13) الحوار القومي الديني، مركز دراسات الوحدة العربية ط1 ديسمبر 1989 ص:82.

(14) انظر مجلة *الجامعة* لفرح أنطون: ج5، سبتمبر 1906 ص191.

(15) هشام شرابي: المثقفون العرب والغرب ص:33.

(16) المرجع نفسه ص:29.

(17) المرجع نفسه ص: 29.

(18) شبلبي شميل: فلسفة النشوء والارتقاء، مصر: مطبعة المعارف ط1، 1909. ج2 ص: 320.

(19) محمد جابر الأنصاري: تحولات الفكر والسياسة ص:24.

(20) هشام شرابي: المثقفون العرب والغرب ص: 68.

(21) ندوة مجموعة كتّاب القومية العربية والاعلام. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، أيلول/ سبتمبر 1982 ص:279.

(22) أدونيس العكرة: مقدمة المؤلفات الرّوائية لفرح أنطون ط2 بروت: دار الطليعة 1979 ص:21.

انظر واحدا وعشرين فصلا خصصها في كتابه المذكور للذين علّموه وثقفوه.

(23) انظر مقدمة أطروحة الأب جون فونتان.

Le Desaveu chez les écrivains libanais Chretiens de 1825 à 1940 (Doctorat du 3e cycle présentée à la Faculté de Paris (Sorbonne) 1970, P:3.

(24) الأب لويس شيخو (مدير مجلّة الشرق): الآداب العربية في ق19، بيروت: مطبعة الأباء اليسوعيين، 1926 ج2 ص:7.

(25) انظر كتاب: د مسعود ظاهر: الدّولة ولمجتمع في الشرق العربي (1840-1990) دار الآداب 1991 ص:330.

(26) انظر كتاب: الوعي القومي: نظرات في الحياة القومية، 1940 (طبعة منقحة) ص:77.

(27) هشام شرابي: المثقفون العرب والغرب ص:20.

(28) د. رؤوف سلامة موسى: سلامة موسى أبي. القاهرة: دار ومطابع المستقبل بالفجالة والقاهرة ط 1992 1. ص:119.

(29) انظر تجليات ذلك في القسم الخاص بامتدادات العلمانية في الواقع العربي بأطروحتنا حول العلمانية في مؤلفات شبلي شميل وفرح أنطون وسلامة موسى صص:291- 314.